

٣ . الإعجاز في المفردة القرآنية

شكلت المفردة القرآنية المبحث الثالث للنظم القرآني مشكلة مع المبحثين الآخرين مثلثاً دلاليّاً يسبر أغوار النص القرآني، محققاً غاية التشريع الحكيم من خلال مسارات ثلاث: لغوية، صرفية، بلاغية.

أ. خصائص لغوية:

من الخصائص اللغوية التي نتلمسها على صعيد المفردة القرآنية:

١ - مراعاة الألفاظ لمقام السياق: ولدى تأمل هذا الاستخدام تبهرنا دقة معاني المفردات في الآيات التي قد يتراءى فيها التعارض الظاهري لدى الوهلة الأولى! بيد أن التأمل العميق لمعاني هذه المفردات، يُجَلِّي أبعادها، ويكشف عن دقة استخدامها في سياقها.

ومن هذه الآيات ما ورد في وضع الضوابط لعلاقة الابن المسلم بأبيه الكافر، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبِهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ (لقمان: ١٥) ثم نجد ضوابط هذه العلاقة في آية أخرى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنَّا﴾ (المجادلة: ٢٢) هذه الآية قد توحى للذهن لدى القراءة الأولى أنها تعارض الآية السابقة: فالآية الأولى تحت الأبناء على إحسان معاملة الآباء، والثانية تنهاهم عن ذلك، مع أنه لا تعارض بين الآيتين لدى التعمق الدقيق بينهما لدلالة المفردتين: «يوادون» في الآية الأولى و«معروفًا»، في الثانية! حيث يتجلى التناسق الدقيق بينهما؛ فمعنى «الود» أن تكون بينك وبين المودود علاقة محبة. جاء في لسان العرب: «وددت الرجل أولَّه وُدًّا: إذا أحببته»^(١).

أما «المعروف» فلا يشترط فيه المحبة؛ لأن المعروف يبذله المرء لمن يحب، ولمن لا يحب؛ قال صاحب اللسان: «المعروف النَّصَقَةُ، وَحُسْنُ الصَّحْبَةِ مَعَ الْأَهْلِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ النَّاسِ»^(٢).

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة: «ودد».

(٢) المصدر السابق، مادة: «عرف».

ومن هنا جاءت الآية الأولى تمنع إقامة علاقة ودية مع الوالدين غير المسلمين، لأن الإيمان لا يتجزأ، ومن ضوابط هذا الإيمان أن يكون الحب والكره في الله^(١)، وهذا الحب والكره ينسحبان حتى على الأبوين؛ لأن حب الله سبحانه أولى من حبهما، ويتحقق هذا الحب تنعقد أوامر الإيمان، في حين لا يمنع عدم الحب من تقديم المعروف لهما، وإحسان صحبتهما، اعترافاً بفضلهما.

ومن المفردات التي تسطع بقوة أدائها الدلالي، موضحة مفهوماً عقدياً، من خلال ما قد يترأى بينها من تعارض ظاهري! ما نجد في مفردة «الهدى» فهي تأتي لتدل على أن الهداية أمر تكليفي يخضع لاستجابة ذاتية: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَأَسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ (فصلت: ١٧) كما وردت في مواقع أخرى لتدل على أن الهداية أمر توقيفي من الله سبحانه، لا مجال فيه للإرادة الذاتية، كما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ (آل عمران: ٧٣).

(١) جاء في صحيح البخاري: «الحب في الله، والبغض في الدين من الإيمان»، انظر: محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، (دار الفكر، ١٩٨١م)، ٨/١.

ولدى إعمال الفكر في الآيتين يتبدى التناسق التام بينهما من خلال فقه مدلول الهداية العقدي الذي أوحى به الآيتان، فالآية الأولى أشارت إلى هداية «الدلالة» وهي هداية عامة شاملة لجميع الخلق، هداية الدلالة للمنهج الرباني. والآية الثانية أشارت إلى النوع الثاني من الهداية؛ هداية «المعونة» وهي طاقة إضافية تكون رافداً لهداية الدلالة، والارتقاء بصاحبها إلى مرتبة سامية: مرتبة التقوى: ﴿وَالَّذِينَ أَهْدَوْا نَزَادُهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ يَقُولُهُمْ﴾ (محمد: ١٧) وهذه المرتبة من الهداية ترقى بأصحابها إلى مكانة أئمة في الجنة: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَكَابٍ ﴿١٤١﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ مِّنْفَنحَةٍ لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ﴿١٤٢﴾﴾ (ص: ٤٩، ٥٠).

٢ - الكثافة الدلالية للمفردة القرآنية: ترددت هذه السمة اللغوية بوضوح في كثير من المفردات القرآنية، ومن هذه المفردات ما نجد في مفردة «الحمد» في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاحة: ٢) فهي قد أفادت إلى جانب حسن الافتتاح وروعة المطلع، المبالغة في الثناء على الله سبحانه، بما يليق بجلاله؛ لأن «اللام» في الحمد

تضمنت معنى الاستغراق^(١)، وهذا لا يتأتى لو جاءت اللفظة على الأصل، بصيغة: (أحمد الله رب العالمين).

ب - خصائص صرفية :

نهضت الخصائص الصرفية على صعيد المفردة القرآنية بوظيفة دلالية واضحة المعالم عمّقت أهداف الكتاب الكريم. وقد تراءى ذلك في:

١ - البعد الدلالي لصيغ المبالغة: اتسمت صيغ المبالغة بمخزون دلالي عميق يتكافأ مع دقة التشكيل اللغوي للصيغة بمعناها التوقيفي الاصطلاحي؛ وهذا ما نلاحظه في السمي الجلالة: «الرحمن» «الرحيم».

ولدى إتمام النظر بهاتين المفردتين نجد أنهما مشتقتان من «الرحمة» إلا أن الصيغة الاشتقاقية لكل منهما حملت في ثناياها بُعداً دلاليّاً لم يتوفر في الأخرى! ف «الرحمن» تضمنت معنى عظيم الرحمة؛ لأن «فعالان» صيغة مبالغة في كثرة الشيء وعظمته، ولا يلزم فيه الدوام كفضبان، ونعسان^(٢).

(١) محمد علي الصابوني، صفة التفاسير، (بيروت: دار القرآن الكريم، ١٩٨١م)، ١/١٢.

(٢) لأنها معدولة عن اسم الفاعل: راحم، غاضب، ناعس.

أما صيغة «الرحيم» فتضمنت معنى دائم الرحمة، لأن «فعل» تستخدم في الصفات الدائمة، ككريم، وظريف، فكانه قيل «العظيم الرحمة الدائم الإحسان»^(١).

يقول الإمام الطبري منوهاً عن الخواص الدلالية للرحمن والرحيم: «... هو أنه بالتسمية بالرحمن موصوف بعموم الرحمة جميع خلقه. وأنه بالتسمية بالرحيم موصوف بخصوص الرحمة بعض خلقه... وقد خصَّ عباده المؤمنين في عاجل الدنيا بما لطف بهم من توفيقه إياهم لطاعته، والإيمان به وبرسله، واتباع أوامره، واجتناب معاصيه... كما قال جل ذكره: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾^(٢).

ومن المفردات ذات الكثافة الدلالية ما نجد على صعيد المعاني الاشتقاقية لمفردة «الملك» حيث نجد هذه الصيغة قد اختزلت عدة مراحل للملكية التي نجدها في اشتقاقات أخرى للمفردة: فمنها ما يأتي بمعنى «مَالِك» وهو الملك الذاتي للفرد، ويأتي منها «مَلِك» وهو الحاكم، ويأتي منها «مُلْك» وهو مالِك من يملك.

(١) الصابوني، صفوة التفسير، ١٢/١.

(٢) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان في تفسير القرآن، (بيروت: دار الجليل، القاهرة: دار الحديث، ١٩٨٧م)، ٤٢/١.

ولما كانت غاية التعبير القرآني التركيز على المفاهيم العقدية وترسيخها بالنفس الإنسانية، فقد جاء بصيغة الملكية من أصلها، لينبه الأذهان إلى أنه سيأتي اليوم الذي لا يوجد فيه مالك سواه:

﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (غافر: ١٦).

٢- الوظيفة الدلالية للإسناد الجمعي: شكلت صيغة الإسناد الجمعي ملمحاً بارزاً في تحقيق أهداف البيان القرآني، وذلك من خلال التلاحم الدقيق بين التشكيل الصرفي؛ والمفهوم العقدي، بحيث يساند أحدهما الآخر، ويتجلى ذلك في التشكيل الصرفي لمفردتي: «نعبد» «نستعين» من خلال ورودهما بصيغة الجمع، مع أن المتلفظ بهما فرد واحد. فلم يقل: (إياك أعبد، وإياك أستعين)، وحكمة هذا الإسناد الجمعي - والله أعلم - «للاعتزاف بقصور العبد عن الوقوف في باب ملك الملوك، فكأنه يقول: أنا يا رب العبد الحقير الذليل، لا يليق بي أن أقف هذا الموقف في مناجاتك بمفردتي، بل أنضم إلى سلك المؤمنين الموحدين، فتقبل دعائي في زمرتهم، فحن جميعاً نعبدك، ونستعين بك^(١).

(١) الصابوني، صفوة التفاسير، ١٣/١.

جـ - خصائص بلاغية :

حققت الخصائص البلاغية على صعيد المفردة القرآنية مرجعية مزدوجة تجلت على المستوى الديني والبلاغي، ونتلمس ذلك في:

١- التصعيد الدلالي لصيغة التنكير: طرح هذا اللون البلاغي الاستعداد ليوم الدين ببلاغة التعبير على مستوى التنكير، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا يُجْزَى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ (البقرة: ١٢٣)

في هذه الآية الكريمة جاء التنكير في مفردة «يوماً» لإفادة المبالغة والتهويل في شأن ذلك اليوم الذي يأخذ تصوره في النفس كل مأخذ لاستكناه أحداثه، وشدة أهواله، وهذه الصورة من الفزع النفسي لم تكن على هذا النحو من الجسامة فيما لو جاءت المفردة على صورة التعريف (واتقوا اليوم) لأن المعروف والمألوف لا تُخشى عواقبه، ومن ثم لا يُجدي التحذير منه لاجتناب عواقبه!

٢ - البعد الرمزي للتقديم والتأخير: ومع مواكبة السمات البلاغية على صعيد المفردة القرآنية تتجلى سمة أخرى تبرز أثر النظم القرآني في بيان أهداف البيان المعجز، ويتجلى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ (التحریم: ١١). هذه الآية الكريمة أفادت تجسيد صورة من صور الحب الإلهي؛ الحب الصادق المنزه عن المنافع، وهذه القاعدة الإيمانية تراءت من خلال تقديم «عندك» على «بيتاً» وهذا التقديم قد جسّد بأن امرأة فرعون قد آثرت جوار الله على نعيم الجنان؛ إذ لم تأت صياغة الآية على هذا النحو: (رب ابن لي بيتا عندك في الجنة)، وهذا دليل على عظم الحبة وسموها، فهي في شوق للمنعم لا للنعم، وللمعطي لا للعطاء، وللجار قبل الدار! هذا فضلاً عن تقريرها لقاعدة إيمانية: «عقيدة الولاء والبراء» عقيدة الحب والكره في الله! فقد تبرأت من الزوج، وتحذت الطغيان، صبرت على الابتلاء، لتزقي إلى مرتبة سامية من العطاء؟ إلى جوار الله!

ومن الخواص الأخرى للتقديم والتأخير التأصيل لقضية عقدية، تتجلى في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥) بتقديم مفردة «إياك» على الفعل «نعبد»

وهذا التقديم قد احتوى كثافة دلالية لا يمكن تحقيقها فيما لو جاءت الآية على مقتضى التركيب المألوف بتقديم الفعل على المفعول «نعبدك ونستعينك» فقد أفاد هذا التقديم للضمير «إياك» معنى الحصر، أو القصر، كما يقول البلاغيون. بمعنى أن هذا التقديم قد قصر تحقيق العبودية والاستعانة على الله وحده دون سواه، ولو لم يتم هذا التقديم لاحتملت الآية العطف عليها، ومن ثم فإن العبادة والاستعانة قد تصرف الله سبحانه ولسواه!!

وعلى هذا فصيغة الحصر أو ما كان حقه التأخير قد جلت مفهوم الألوهية، وأن الله وحده هو المعبود والمستعان.

٣- الوظيفة الدلالية للفاصلة القرآنية: شكلت الفاصلة القرآنية سمة من سمات التلازم الصوتي، وروعه الأداء في النظم القرآني، وهذه الروعة الأدائية للفاصلة القرآنية نلاحظها في قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَأَيْلٌ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَا آخِرَ خَيْرٍ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ الضحى: (٨-١). في هذه الآيات حذفت كاف الخطاب في: «قلبي، فأوى،

فهدي، فأعني» وهذا الحذف قد علله بعض المفسرين بأنه كثير للتخفيف رعاية للفواصل^(١)، إلا أن بعض المهتمين بالدراسات القرآنية من القدماء والمحدثين قد نوهوا عن أن للفاصلة القرآنية وظيفة دلالية توازر مهمتها الإيقاعية، يقول الرماني: «وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة، لأنها طريق إلى إفهام المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدل بها عليها^(٢)».

وتعلل عائشة عبد الرحمن بأن حذف كاف الخطاب في «قلی» وما يليها هو حذف يقتضيه مقام الخطاب، وهو تجنب مخاطبة الله سبحانه رسوله في موقف المؤانسة بجفاف القول: «ولو كان البيان القرآني يتعلق بهذا الملحظ اللفظي فحسب لما عدل عن رعاية الفواصل في الآيات بعدها: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١١﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١٢﴾﴾ (الضحى: ٩-١١) وليس في السورة كلها «ثاء» فاصلة، بل ليس فيها حرف ثاء على الإطلاق... ونرى - والله أعلم - أن حذف كاف من:

(١) ابن قيم الجوزية، مدارج السالكين، ٦/١.

(٢) علي بن عيسى الرماني، النكت في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله زغلول سلام، ط ٣،

(القاهرة: دار المعارف، مجموعة «ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للرماني، والخطابي،

والجرجاني، ١٩٥٦م)، ص ٩٨.

«وما قلى» مع دلالة السياق عليها، تقتضيه حساسية مرهفة بالغة الدقة واللفظ، وهي تحاشي خطابه تعالى رسوله المصطفى في موقف الإيناس بصريح القول «وما قلاك» لما في القلى من حسّ الطرد، والإبعاد، وشدة البغض. أما التوديع فلا شيء فيه من ذلك، بل لعل الحس اللغوي فيه يؤذن بأنه لا يكون وداع إلا بين الأحباب، كما لا يكون توديع إلا مع رجاء العودة، وأمل اللقاء^(١).

ووفق هذا الدور الوظيفي ترددت جميع الفواصل في النظم القرآني، محققة دقة النظم، وعمق المعنى، وجمال الإيقاع.

(١) عائشة عبد الرحمن، الإعجاز البياني، ص ٢٥٠.